من مدينة المجد إلى مدينة الرب

From the city of glory to the city of god

د.نسيبة مزواد[1]
جامعة باتنة 01
noussaiba.mezouad@univ-batna.dz

تاريخ الوصول 2022/12/24 القبول 2023/05/04 النشر على الخط 2023/06/05
Received 24/12/2022 Accepted 04/05/2023 Published online 05/06/2023

ملخص:

بنى القديس أوغسطين نظرية سياسية محكمة تمهيدا لمشروعه الحضاري الضخم، انطلق من ناظمها المتمثل في الإنسان السياسي المبدع؛ صانع الدولة، بقسميها: الدولة الكائنة والدولة التي يجب أن تكون، الدولة المنشودة المسيحية والدولة الحقيقية الرومانية، الدولة التي أرست قواعدها على هذه الأرض التي أوقعتنا فيها إرادتنا الحرة، كان القتل هو المدخل الذي اختاره الانسان ليؤسس لها.

خلصنا إلى مجموعة من النتائج منها: مرّت المسيحية في تشكلها بثلاث حركات؛ حركة الخضوع للدولة، وحركة الدولة داخل دولة وأخيرا الدولة المسيحية.

الكلمات المفتاحية: الانسان، الدولة، السلطة، السقوط.

Abstract:
St. Augustine built a tight political theory as a prelude to his huge civilized project, he started from its organizer represented by the creative political man; The maker of the state, in its two parts: the existing state and the state that ought to be, the aspired Christian state and the true Roman state, the state that laid its foundations on this land into which our free will placed us. Murder was the entrance chosen by man to establish it.
We concluded a set of results, including: Christianity went through three movements in its formation; The movement of submission to the state, the movement of the state within a state and finally the Christian state.
Keywords: The human, The state, authorit, the fall.

[1] – المؤلّف المراسل: نسيبة مزواد البريد الإلكتروني: **noussaiba.mezouad@univ-batna.dz**

1. مقدمة

مسافرون نحن على هذه الأرض مقر منفانا، بعد مأزق روحاني-أنطولوجي أوقعتنا فيه الإرادة الحرة للإنسان الأول (آدم-حواء)، لم نشف بعد منه حتى فسدت أرواحنا مجددا وتوسعت الهوة أكثر مع أجسادنا، وشرّعت لتمردها بتاريخ: لحظه السقطة الثانية التي تورط فيها الإنسان؛ لحظه الانعطاف الكلي التي ظن(آدم-حواء) أنه نجى منها بتوبته وعاد إلى الطبيعة الأصل-الأولى، لكن الإرادة الحرة خيبت ظنه وهوت مجددا، واختارت طبيعته التي أكلت من الشجرة لتكون هي طبيعة الأرض، فكان الدخول التاريخي للإنسان إليها دخولا إجراميا بلحظة "القتل"؛ قتل الخير المطلق، إنها اللحظة الفعلية التي تمركز فيها الشر على الأرض، وصار جزءا منها، قسم البشرية إلى قسمين: قسم شرير وقسم صالح، قسم خضع له وقسم انتصر عليه، قسم سيطر على الجسد وقسم خضع له، قسم عادت فيه الإرادة الحرة إلى الأصل، وقسم خلقت فيه الإرادة الحرة لنفسها أصلا جديدا.

مسافرون نحن على هذه الأرض المنفى ولا أحد يعلم حقيقة الآخر، ولا إلى أي قسم ينتمي أهو الخيّر أم أن إرادته أسقطته، لا أحد يستطيع أن يحكم على الآخر ولا يحق له فعل ذلك، إذا كان أوغسطين رجل الدين المسيحي، يقر بوجود رجال فاسدين يلبسون زي القساوسه، ويسكنون الكنائس ويلقون المواعظ ويرتلون المزامير، لهذا رفض أوغسطين أن يكون المظهر أو الأفعال أو حتى الأقوال مصدر حكم على الأفراد، حقيقتنا في دواخلنا ودواخلنا جواهر لا يعلمها إلا الله، نعيش على اختلافنا معا في جماعات تحكمها قوانين وضعية في إطار دولة واحدة نعيشها وأخرى نطمح لها.

2. الدولة

تناول أوغسطين هذه التجمعات من مناظير مختلفة كان المنظر السياسي أحدها في كتابه مدينه الله، والذي تمعن في تحليله حتى يلم بحيثيات السقوط الحضاري لروما، فيكون بذلك قد أسس لفلسفة سياسية متكاملة الأطراف*، هنا نطرح التساؤل التالي: فيم تتمثل فلسفة القديس أوغسطين السياسية؟.

1.2. المجتمع والعدالة

العودة بالعقل إلى تشكل أولى المجموعات البشرية على هذه الأرض في العصور السابقة للتاريخ ليست بالإشكالية المغلقة لدى رجال الدين عموما بما فيهم رجال الدين المسيحيين، ذلك أن الكتب المقدسة تكفلت بقص ما حدث حينها بالتفصيل فالسؤال حول كيف تشكل المجتمع سؤال نجد في الكتاب المقدس واجتهادات الفلاسفة إجابات صريحة عنه، فبعد أن طرد آدم-حواء من المجتمع الملائكي الذي تربطه محبة الله لحد امتهان الذات، تحكمه السلطة الالهية صارمة القوانين في انسجام تام، فحدث أن عكر (آدم-حواء) هذا الانسجام والتوافق في المجتمع فكان الرد الإلهي صارما: النفي إلى الأرض.

* لم يفرد أوغسطين لها كتابا مستقلا بل نجدها موزعه بشكل متفرق في مدينه الله، ودارس الفكر السياسي الاوغسطيني يجب أن يطلع على كل المجلدات حتى تتضح له الصورة، يعود سبب الشتات السياسي عند الفيلسوف ربما لانه لم يكن هو المقصود من الدراسه وعلى الرغم من هذا الشتات الان أنه ألمّ بكل جوانب السياسه بإتقان، كما نجد له دراسه في كتابه ضد الدوناتيه وفيه عالج علاقه الدين بالفلسفه.

عندما استقر آدم وزوجه على الأرض كان الجسد قد كشف عن رغباته هو الآخر، حينها "عرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين وقالت: "اقتنيت رجلا من عند الرب" ثم عادت فولدت أخاه هابيل، وكان هابيل راعيا للغنم، وكان قايين عاملا في الأرض"[1]، شكل آدم وحواء أسرة مكونه من الأب رب الأسرة (آدم)، الأم(حواء)، والأبناء(هابيل، قايين)، وهذا هو المستوى الأول من مستويات المجتمع البشري حسب أوغسطينوس، يقول"البيت أولا"[2] والشروط المتضمنه للمجتمع السماوي هي عينها شروط الأسرة أو البيت لكن داخل إطار زماني ومكاني، إذ السيادة، الانسجام والتناغم أهم شروط قيام الأسرة واستمراريتها، ولا يتحقق هذا الانسجام إلا بخضوع جميع أفراد البيت لسلطة شخص واحد وهو رب الأسرة والمتمثل في آدم، الذي ساد على حواء ويسود على أبنائه، هذا التناغم الجديد الذي فرضته الخطيئة على الأرض وسكانها، إضافة لانخراط الجميع في الحياة الاجتماعية والتشارك في المصالح وتبادل المنافع بين الأبناء بمهنهم المختلفة، المتكاملة، المتناسقة والمتحدة.

بعد مقتل هابيل انقسمت الوحدة وحلت الفوضى محل الانسجام، إذ انفصلت الأسرة ونُفي قابيل إلى مكان بعيد عن مكان آدم، فشكّل أسرة جديدة مستقله بعد أن "17 عَرَفَ قَايِينُ امْرَأَتَهُ فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ حَنُوكَ. وَكَانَ يَبْنِي مَدِينَةً، فَدَعَا اسْمَ الْمَدِينَةِ كَاسْمِ ابْنِهِ حَنُوكَ 18.وَوُلِدَ لِحَنُوكَ عِيرَادُ. وَعِيرَادُ وَلَدَ مَحُويَائِيلَ .وَمَحُويَائِيلُ وَلَدَ مَتُوشَائِيلَ. وَمَتُوشَائِيلُ وَلَدَ لاَمَكَ. 19 وَاتَّخَذَ لاَمَكُ لِنَفْسِهِ امْرَأَتَيْنِ: اسْمُ الْوَاحِدَةِ عَادَةُ، وَاسْمُ الأخرى صِلَّةُ. 20 فَوَلَدَتْ عَادَةُ يَابَالَ الَّذِي كَانَ أَبًا لِسَاكِنِي الْخِيَامِ وَرُعَاةِ الْمَوَاشِي. 21 وَاسْمُ أَخِيهِ يُوبَالُ الَّذِي كَانَ أَبًا لِكُلِّ ضَارِبٍ بِالْعُودِ وَالْمِزْمَارِ. 22 وَصِلَّةُ أَيْضًا وَلَدَتْ تُوبَالَ قَايِينَ الضَّارِبَ كُلَّ آلَةٍ مِنْ نُحَاسٍ وَحَدِيدٍ"[3]، وفي المقابل "25 وَعَرَفَ آدَمُ امْرَأَتَهُ أَيْضًا، فَوَلَدَتِ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ شِيثًا، قَائِلَةً: «لأَنَّ اللهَ قَدْ وَضَعَ لِي نَسْلاً آخَرَ عِوَضًا عَنْ هَابِيلَ». لأَنَّ قَايِينَ كَانَ قَدْ قَتَلَهُ. 26 وَلِشِيثَ أَيْضًا وُلِدَ ابْنٌ فَدَعَا اسْمَهُ أَنُوشَ. حِينَئِذٍ ابْتُدِئَ أَنْ يُدْعَى بِاسْمِ الرَّبِّ"[4]، يخبرنا الكتاب المقدس أن عدد الأسر والبيوت زاد بشكل كبير، وهذا ما قصده أوغسطين في حديثه عن المستوى الثاني من المجتمع البشري الذي أسماه "مدينة" شرط أن تتوفر فيه الشروط التي تحددت في التوراة سلفا والمتمثلة في التجمع في مكان واحد وفق نظام واحد ومصالح مشتركة، وخصائص تميزها عن غيرها، كان يجتمع سكان الخيام ورعاة المواشي على حب الخيام والمواشي في مكان واحد، بعيدا عن السكان الضاربين للنحاس والحديد المجتمعين على حب هذا النمط من الحياة، والإثنان بعيدان عن السكان العازفين للعود والمزمار المجتمعين على الرقي، كما ويشترط أن يكون لكل مجتمع زعيم أو رئيس ينظمه ما أسماه الكتاب المقدس بـ"الأب" أو الوصي أو المنظم، فهو يابال عند المجتمع الزراعي، توبال عند المجتمع الصناعي، وبهذا تشكلت مجموعات مختلفة ومتنوعة.

يعرف أوغسطينوس المجتمع بقوله :"جماعة عديدة تستند على حق معترف به وعلى مصالح مشتركة"[5]، وبقوله في موضع آخر :"ليس جمعا طارئا أو وليد الصدفة بل جماعة تقوم على احترام الحق والمصلحة المشتركة"[1]، الشروط المؤلفة للمجتمع البشري في

---

[1] سفر التكوين، الاصحاح (4: 1-2).

[2] أوغسطينوس، مدينه الله، مج3، مصدر سابق، ص 124.

[3] سفر التكوين، الاصحاح (4: 17-22).

[4] سفر التكوين، الاصحاح (4: 25-26).

[55] أوغسطينوس، مدينة الله، مج 3، مصدر سابق، ص15.

درجته الثانية هي التي تجعل من وجود المدينة ممكنة وإلا فإنها ستنهار مع أول منعطف يصادفها، لأن التناسق الذي جعله أوغسطين أهم شروط فلسفته ككل لم يتحقق، فتستحيل إلى جماعة عادية ستتفرق لا محالة، يضيف أوغسطين شرطا آخر يراه أساسيا لتسمية جماعة ما بالمجتمع أو الشعب والمتمثل في شرط "اللغة" يقول: "اختلاف الألسنة يجعل الإنسان فيه غريبا عن الإنسان، وفي الواقع أن اثنان يجهل أحدهما الآخر(...)، ينتج مجتمعا من حيوانات خرساء ومن أجناس مختلفة، لأن ذلك الحاجز بسبب تباين اللغات يجعل من تبادل الأفكار فيما بينهما مستحيلا، فيبقى التجانس في الطبيعة عاجزا عن الربط فيما بينهما كبشر، ويبدوا أن الإنسان هو أكثر إنسجاما مع كلبه منه مع الإنسان الغريب"[2]، يقصد أوغسطين هنا بضرورة تطبيق مبدأ التواصل بين الأفراد لتعمق روابط المحبة بين بعضها البعض، وإيجاد مواضيع مشتركة يسهل تبادلها، فالتواصل هو أهم عامل لتماسك الأفراد وتنظيم السلوكات، من خلال تبادل المنافع والأفكار وأسلوب العيش، فالتواصل هو آلية المجتمع لبناء أساس تشاركي صلب بين الافراد، ويكون ذلك من خلال اللغة المشتركة، والتي تكون على مستويين؛ المستوى الأول: لغة الأفراد الأصلية، والمستوى الثاني: لغة المجتمع المسيطر لأن المجتمع الخاضع مولع بتقليد المجتمع الغالب، وكنتيجة فاللغة السائدة هي لغة المجتمع القوي المسيطر.

ينتقل أوغسطين إلى المستوى الثالث من المجتمع البشري، وهو الذي يضم جملة المجتمعات البشرية المتفرقة على الأرض، إنه المجتمع الكبير الذي يتألف من كل ما حملته الأرض من مجتمعات وما ستحمله إنه الكون، أما المجتمع الرابع فهو "مجتمع الملائكة القديسين"، إنه المجتمع المثالي الذي نطمح له، حيث السلام الأبدي والحب الخالص والأخلاق الكاملة، المجتمع الذي يضم سكان مدينة الله، المجتمعين على حب الله، والذي لن يتحقق في التاريخ إلا بمجيء السيد المسيح في نهاية العالم ويترأسه.

لطالما كان الحب هو الجامع بين أفراد المجتمع الواحد، حب نمط حياة ما والنفور من باقي الأنماط التي تحبها المجتمعات الأخرى، وعليه فالمجتمع أو الشعب هو "مجموع الناس الذين يعيشون في مدينة ما، إنه تجمع وتشارك عدد من الكائنات العاقلة، مجتمعين بفعل إرادة ورغبة في امتلاك مشترك لما يحبون"[3]، وكلما كان الأفراد متمسكين بما يحبون كلما تماسك مجتمعهم والعكس. ويمكن أن نعرف المجتمع المتماسك بسهولة وهو ذاك المجتمع الذي يجتمع على حب خالص بعيدا عن الماديات والآنيات والمتغيرات وكل ما فيه نقص، إنه الحب المفارق لكل ناقص؛ حب الله، الذي يجعل مواطنيه بعيدون كل البعد عن التنافس على السلطة، هذا لا يعني أنهم ينبذونها بل ليست مركز تفكيرهم، المتركز أساسا على حب الله والتمسك بفضائله.

جعل القديس أوغسطين للمجتمع ناظما وعمدة يميزه عن أي تجمع بشري آخر ويعرف به، المتمثل في مقولة "العدالة"، وهنا يظهر تأثره بأفلاطون والذي ضبط على أساس جمهوريته مفهومه للعدالة بقوله "العدالة هي إعطاء كل ذي حق حقه"[4]، ويعرفها أوغسطين بقوله: "العدالة هي هذه الفضيلة التي تعطي كل واحد حقه"[5]، واعتبر العدالة هي الحق المشترك الذي ضبط به مفهوم

---

[1] المصدر نفسه، مج1، ص91.

[2] المصدر نفسه، ص ص124-125.

[3] علي زيعور، أوغسطينوس، دار إقرأ، بيروت، ط1، 1983، ص228.

[4] أفلاطون، الجمهورية، تر، حنا الخباز، دار القلم، لبنان، ط6، 2000، ص 16.

[5] أوغسطينوس، مدينة الله، مج3، مصدر سابق، ص151.

المجتمع، بل لا يقوم مجتمع إلا به، يقول :"الدولة لا يمكن أن تكون بلا عدالة، ومن ثم، حيث لا عدالة صحيحة لا يمكن للحق أن يكون، لأن ما يعمل بحق، يعمل بعدل، وما يعمل بلا عدالة لا يعمل بحق (...)، وعليه حيث لا عدالة حقيقية لا مشاكل بين الناس في حق معترف به، وانطلاقا من ذلك لا شعب"[1]، إذا انتفت العدالة حل محلها الظلم، ومصدره الإنسان الأرضي الذي لا يزال أسير خطيئته، لأن العلاقة القائمة بين العدل والظلم لا تخرج عن إطار التوافق بين قوى الإنسان الخيّرة والشريرة، بمعنى أنها تخرج عن إطار "علاقة الإنسان بالله، فالعدالة داخل الفرد بين قوتي الخير والشر لن تتحقق بتلبية مطالب النفس خاصة الشهوانية منها، بل ستحقق في حالة الصلة الطيبة بين الإنسان والله، أي أن العدالة الإنسانية أساسها العودة إلى الله و الالتزام بكل جوانب العقيدة الدينية إذ إن جوهر العدالة يكمن في العلاقة بين المرء والرب و تنبثق عنها بالتأكيد العلاقات السليمة بين الإنسان و الإنسان "[2]، هذا إذا ما أراد الإنسان أن يعيش حياة سوية متناغمة فطريقها واضح، يكون بإحياء تعاليم السيد المسيح التي ستحيي بالضرورة علاقتنا بالآخر وتوطدها، مادامت علاقات قائمة على المحبة الخالصة لا غيرة فيها ولا حسد، وهي الصفات القاتلة التي متى ما حلت في الانسان دمرت إنسانيته، أليست هي الصفات التي جعلت إبليس يتمرد وآدم ينفى إلى الأرض.

التناغم مقولة وظّفها أوغسطين في فكره بشكل مركّز، نجدها في كل مبحث من مباحث فلسفته، ويقصد بها هنا في الجانب السياسي محاولة خلق التوازن بين قوى النفس، التي تخضع جميعها لأوامر الرب، فتخمد النفس الشهوانية وتحكم النفس العاقلة، هنا فقط يضيء السيد المسيح في داخل الفرد ويشرق فيكون الإنسان عادلا، أو يقتبسها من الكتاب المقدس التي تحدد تعاليمه قيمة العدالة وتحث عليها، أما إن تغلبت النفس الشهوانية يخبو السيد المسيح في القلوب وتنتصر الخطيئة الكامنة فيها فيستحيل إنسانا ظالما.

الظلم في تعريفه هو تحطيم تدريجي للمجتمع، فكلما سادت الشهوة على الإنسان سادت على المجتمع واستحال مجتمعا شهوانيا، فتسود طبقة على حساب طبقة أخرى كما تسود النفس الشهوانية على النفس العاقلة، حينها لا يأخذ كل ذي حق حقه، بل ينتزع منه انتزاعا، ويصير ذاك الانتزاع حقا، يقول أوغسطين متأثرا بشيبون :"الظلم استعباد إنسان لإنسان آخر، وهو ظلم تقوم به مدينة مستبدة، واسعة النطاق، إن أرادت السيطرة على مقاطعاتها ويكون الجواب باسم العدالة أن ذلك حق، لأن الاستعباد مفيد للناس المستعبدين"[3]، فبعد أن ينهار التوافق تتغير منظومة القيم ويستمد الظلم مشروعيته ومكانته ضمن المجتمع الجديد.

يأخذ الظلم في هذه المرحلة مسميات عدة كالفتوحات والتوسعات وتنشأ على أساسها مملكات وإمبراطوريات، يقول في حقهم أوغسطين :"هم جماعة من البشر تأتمر بأمر إنسان واحد وتعترف بعهد اجتماعي ينظم تقاسم المغانم فيما بينها فكبرت واحتلت بلادا، وأقامت لها مراكز هامة، واتخذت مدنا وأخضعت شعوبا، تتخذ علنا آنذاك لقب مملكة لا يضمن لها الزهد بل عدم

[1] المصدر نفسه، ص ص151-152.

[2] مصطفى النشار، تطور الفلسفة السياسية من صولون حتى ابن خلدون، الدار المصرية السعودية، القاهرة، دط، 1982، ص 129.

[3] نقلا عن أوغسطينوس، مدينة الله، مج 3، مصدر سابق، ص152.

العقاب"[1]، وهو عينه ما أكده الحوار الذي دار بين الاسكندر الأكبر والقرصان على لسان أوغسطين :"بماذا تفكر أنت؟ بما أن مركبي سريع العطب سموني قرصانا وأنت بما أن لك أسطولا عظيما سموك فاتحا"[2]، هذه هي العدالة السياسية مهما حاولت الدولة أن تخفيها بشعار السلام والمحبة والحوار، عدالة باطنها هو الظلم، ومهما حاولنا البحث في التاريخ فإننا لن نجد إمبراطورية قامت على العدل، لأن مفهوم العدل السياسي هو عينه الظلم، ثم تحاول تلك الامبراطورية جاهدة في مرحلة تطورها أن تعود للعدالة الحقة لعل حضارتها تستمر، لكنها ستفشل لا محالة لأن الإنسان مصدر عدالتها، والإنسان بما هو كائن ناقص يحمل في ذاته بذور الخطيئة والفساد وبالتالي فإن عدالته مثله ناقصة فاسدة.

العدالة الكاملة الضامن الوحيد لاستمرار الحضارات وازدهارها، مصدرها من اسمها مصدرها الكامل؛ مصدرها "الله"، هي عدالة الدين المسيحي "ما من دولة بعد ظهور المسيحية تستطيع أن ترتقي إلى مرتبة الدولة إذا لم تكن هي نفسها مسيحية، وإنه لا يتسنى قط لحكومة لا تكون على صلة بالكنيسة أن تكون عادلة، وهكذا اقترن طابع الدولة المسيحية بقدرتها على أقامة العدالة وإحقاق الحق"[3]، إنها العدالة المتحققة في المدينة السماوية، ومع ذلك لم ينفي القديس وجود عدالة على الاطلاق، بمعنى عدالة غير مسيحية، لكنه اعتبرها عدالة آنية لا تكفي الدولة لتستمر، ولا تضمن بقاءها، عدالة تستحق الثناء والتشجيع، حتى أن السيد المسيح يجازي الشعوب غير المسيحية على عدلهم، كالوثنية الرومانية مثلا :" ألم يكرمهم عدد كبير من الأمم؟ ألم يخضعوا لهم عددا كبيرا من الشعوب؟ ألم يكرس المجد أسماءهم في كتب تاريخ العالم؟ وهل لهم أن يشكوا عدل الإله الحق؟ ألم ينالوا جزاءهم؟"[4] ، شعب كان العدل فضيلتهم الأصلية، شعب استحق العالمية، وحضارة استحقت أن تكون روما.

1.1.2 تعريف الدولة

ينطلق أوغسطين في تعريفه للدولة من المعطيات التي فرشها في بحثه حين عرّف الشعب والمجتمع، وبعد أن وصل إلى أن الشعب لا يكون شعبا إلا إذا حكمته العدالة، هنا تظهر الدولة؛ هي شعب مضاف إليه عدالة، دولة = شعب + عدالة، وذلك لأنه حددها على أنه "جماعة عديدة تستند على حق معترف به وعلى مصالح مشتركة، أما ما يعنيه بحق معترف به، هذا ما يشرحه شيبون عندما يبين أن الدولة لا يمكن أن تساس بلا عدالة، ومن حيث لا عدالة صحيحة لا يمكن للحق أن يكون، لأن ما يعمل بحق يعمل بعدل، وما يعمل بلا عدالة لا يعمل بحق (...)، وعليه حيث لا عدالة حقيقية لا مشاركة بين الناس في حق معترف به، وانطلاقا من ذلك لا شعب، استنادا إلى تحديد شيبون أو شيشرون ، وإن لم يكن هناك شعب فلا شيئ يسمى دولة"[5]، ويعرفها في موضع آخر بقوله :"الدولة هي مجموعة عاقلة تتوحد حول تملك مشترك وهادىء لما تحب، وأراد إنسان أن يعرف شعب ما، عليه بكل تأكيد أن يتأمل في ما يحب، ولكن؛ أيا يكن موضوع حبه واجتمعت مخلوقات عاقلة دون حيوانات، وارتبطت فيما بينها في

[1] المصدر نفسه، مج2، ص173.
[2] نقلا عن أوغسطينوس، مدينة الله، مج 3، مصدر سابق، ص173.
[3] المصدر نفسه، مج1، ص174.
[4] المصدر نفسه، ص250.
[5] المصدر نفسه، مج3، ص ص151-152.

تملك مشترك وهادىء لما تحب، حق لها شرعا اسم دولة"[1]، وحتى يميّز الدولة عن غيرها من التجمعات يركز النظر على اشتراك المجموعة البشرية العاقلة التي يحكمها العدل، اشتراكها في حب موضوع ما، كما اشترك الرومان الأوائل في حب المجد والعظمة، وكلما كان الحب نقيا خالصا من أي شهوة ذاتية مادية كلما كانت الدولة أقوى وأصلب، وهنا كان مدخل المسيحية للقول أن الدولة القوية ليست سوى دولة السيد المسيح الخالية من جميع مخلفات الخطيئة.

عندما يقول أوغسطين أن اجتماع مجموعه بشريه على حق مشترك به تربطهم العدالة، فهو ينفي الفكرة القائله بأن "البشر كانوا يعيشون حياة خالية من أي سيطرة من الإنسان على أخيه الإنسان ولكن ثمن الخطيئة هو ولادة تلك السيطرة وهذا أمر شرعي"[2]؛ بمعنى أنه يرفض كون الدولة ضرورة حتمية لفساد الأفراد وخطيئتهم بل هي ضرورة حتمية لتجمع الأفراد على حب ما وعلى عدالة أيضا، وبذلك "فالدولة تقوم على استعداد نفسي بثه الله في الإنسان، كان من شأنه أن يحمّله على التجمع مع كائنات من بني جنسه، وهذا يعني أن الله هو في الأساس خالق الدول"[3] وليست الخطيئة، وهذا الطرح هو الأقرب للطرح الأوغسطيني عكس الطرح الأول القائل بأن الخطيئة هي الأصل، وذلك أن أوغسطين كان دائما في ضبط مفهومه للدولة يركز على الحب لا الخطيئة.

لم يكن المسيحيون متقبلين للدولة في بداية عهدهم بها، إذ رفض المواطن المسيحي أن يخضع لدولة وثنية ويمارس طقوسها ولا حتى أن يشارك في حروبها أو يساهم في حماية الوثنيين بالانخراط في صفوف جيوشها، منغلقين على أنفسهم في كنيستهم رافضين الانخراط في الحياة الاجتماعية الرومانية، على الرغم من أنهم يستفيدون من الحماية باعتبارهم مواطنين رومانيين، إلا أنهم يعتبرون السياسة جانب حرّم عليهم المشاركة فيه، لكن أوغسطين أعطى للجانب السياسي بعدا آخر، وفتح للديانة المسيحية أبوابا على الامبراطورية الرومانية ليحافظ عليها ويبشر من خلالها، وهذا ما دفعه لدراسة السياسة والتعمق فيها، والحقيقة أن هذا الأمر لم يكن من ابتكار القديس أوغسطين، بل سبقه إلى ذلك أساقفة بلغوا من العبقرية درجة جعلتهم يجعلون من دينهم المقزم دين امبراطورية عظمى كروما، وأوغسطين لم يكن أقل منهم ذكاء بل واصل التوسع من خلال الدولة عكس دونات الذي رفض العلاقة بين الدولة والدين.

اعتبر أوغسطين الدولة ضرورة طبيعية حتمية بعد أن تمرد الكل على الكل، على الرغم من أنه يقر في أكثر من موضع أن الدوله ليست مستقرة بل هو دائم الاحساس بالاغتراب فيها هو وكل المسحيين، يقول :

"لي اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح" (في 1-23)
ليتني أموت لأراه ... لن يطيب لي العيش إلا مع المسيح"[4]

ومع ذلك فان الدوله كالمدينة الأرضية نعيش فيها ومعها، مجبرون على الانخراط فيها لتستمر المسيحية.

---

[1] أوغسطينوس، مدينة الله، مج1، مصدر سابق، ص161.

[2] المصدر نفسه، ص162.

[3] كيرلس سليم بسترس وآخرون، تاريخ الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة، المكتبه البوليسية، بيروت، ط1، 2001، ص 757.

[4] أوغسطينوس، من تأملات أوغسطينوس، تر،بانوب عوض، كنيسه الشهيد مارجرجس بيروت، دط ، دت، ص ص18-19.

2.2. القـــــــانون

لما كان الإنسان هذا الكائن الناقص الحامل في ذاته بذور فنائه وهي أحد السنن الكونية الثابتة، يعيش مع الآخر في بيئة واحد أو مجاورة، ولما كانت الإرادة الحرة هي ميزة كل المخلوقات العاقلة، كان لزاما أن تقنّن تلك الحريات حتى لا تتعدى فئة مجتمعية على فئة أخرى، بل حتى لا يتعدى أفراد البيئة الواحدة على بعضهم البعض، بل حتى تقنّن سلوكات الفرد ذاته وتحافظ على حياته من بطش نزواته ونزوات الآخر تجاهه. فالإنسان الذي كان متحررا من أي سلطة خارجية هو الآن خاضع لسلطة الجسد وسلطة المجتمع والآن سلطة الدولة وقوانينها، هنا وبغية ضمان التنظيم وتحقيق مقولة الأمان كشرط أساسي لقيام الدول والسلطات يظهر القانون.

أوغسطين كأي باحث مسيحي؛ فإن القانون الذي سيدرسه وسينادي به آليا ومنطقيا هو القانون المتضمن في تعاليم المسيحية، لأن الدين ذاك الثابت الكامل هو الحامل للقانون الذي سيأخذ منه الثبات والكمال، والذي ينطبق على جميع الأمم وعبر كل الأزمنة، الصالح للمسيحي وغير المسيحي، الضامن الوحيد لأبدية الدول والحضارات، لكن الخطيئة الدائمة الظهور في ثنايا البحث الأوغسطيني كونها دائمة الظهور في ثنايا الحياة، تمنع الإنسان من تبصر القانون المسيحي فيلجأ لإبداع قانون يوازي القانون الإلهي، فيكون ناقصا غير ثابت كصاحبه وهو أمر منطقي لحد بعيد إذ "في هذه المؤسسه نحن مدعوون لصناعة بشر لا ملائكه"[1]؛ صناعه بشر بما فيهم من نزوات وأخطاء يحاول القانون تصحيحها وتقويمها لكنه لا ينفي وجودها، وهنا يظهر لنا نوعين من القوانين: قانون صادر من الله متجلي في تعاليم السيد المسيح وهو القانون الالهي، وقانون من وضع الإنسان وإبداعه يسمى بالقانون الوضعي.

1.2.2. القانون الالهي:

خلق الله الموجودات وفق أوامر إلهية كانت أفكارا في ذهنه ثم تحولت لفعل متجسد، موجودات بالقوة تحولت لموجوات بالفعل، تسير في إطار نظام صارم لا يختل أبدا، أزلي أبدي في تناسقه وتناغمه، مطبق على كل الموجودات وهي ماهيات قبل أن تستحيل موجودات، يحيط الكون بعنايته المستمرة في الزمان والمكان، هذا النظام المتناسق الصارم هو ما يسميه رجال الدين المسيح بالقانون الالهي، والذي يعرفه القديس أوغسطين بقوله: "القانون الأبدي هو العقل الإلهي، أو هو إرادة الله، الذي يطلب منا أن نحافظ على نظام الطبيعه ويمنع اضطرابها، (...)فاذا كان القانون الأبدي هو نفسه الإرادة الإلهية أو العقل الإلهي، فهو يرتبط ارتباطا وثيقا بالعقل أو الأفكار الإلهية، والواقع أن كل فكرة من هذه الأفكار هي قانون أبدي ثابت لا يتغير، يستقر في أعماق الحكمة الإلهية، (...)والقانون الإلهي هو الفن الإلهي الذي يحكم الأشياء والذي بواسطته خلقت الأشياء"[2]، القول بأن القانون الإلهي هو عينه العقل الإالهي وعينه الأفعال الإلهية، فإنه بالتعدي عين الله، فلا صفه تضاف على الله وإنما هي عينه، فالله خلقنا وخلق كل الموجودات وفق هذا النظام الصارم والذي يسهل على العقل الوصول إليه واستكشافه، لكن فقط بالعقل السوي الذي يسير وفق

---

[1] حنه أرندت، ما السياسة، تر وتح: زهير الخويلدي، سلمى بالحاج مبروك، منشورات ضفاف-منشورات الاختلاف، الرياض-الجزائر، ط1، 2014، ص 34.
[2] نقلا عن إيتين جلسون، روح الفلسفة المسيحيه في العصر الوسيط، تر: إمام عبد الفتاح إمام، مكتبه مدبولي، مصر، ط3، 1996، ص 387.

فطرته السليمة، الذي يفكر وفق النظام الذي بثه الله في الوجود، العقل الذي عرف الله وآمن به، العقل الذي عرف الحقيقه، الذي عرف أن القانون " شامل، أي أنه يعم الناس جميعا، لأننا استنبطناه من الطبيعة الانسانية منظور إليها من طابعها الكلي الشامل"[1]. ندركه بالعقل أو بالاشراق المباشر من المعلم.

فالقانون الأزلي هو قانون مبثوث في الطبيعة في نظامها وتناسقها وصرامتها، هو عنصر أساسي في صناعة الكون وخلقه، بمعنى أنه موجود داخل كل فرد منا نستطيع أن نعرفه ونصل لحقيقته، ممزوج بفطرته وضميره، وعليه يكون الوصول إليه هو وصول للحقيقه؛ وصول للسعادة والخير، لأن السعادة هي ذلك الاستقرار الذي ينتج عن التناسق والتناغم الداخلي الذي كان عليه الإنسان قبل خروجه من الجنه عندما كان الجسد تحت إمرة النفس العاقلة، والنفس العاقله تحت إمرة الله، وعموما فالقانون الأزلي هو "القانون الذي بفضله تنظم كل الأشكال تنظيما كاملا، وتتوحد مع إرادة أو حكمه الله التي توجه كل الاشياء إلى غايتها الصحيحه. إنها تكوّن الينبوع الكلي للعدالة والعدل، ويصدر عنها كل ما هو عادل أو خيّر في القوانين الأخرى، (...)والقانون الأزلي الدائم واحد في النهاية، وهو نفسه باستمرار وفي كل مكان، ولا يعترف بالاستثناءات"[2]، فالثبات والصرامة هي صفات القانون الأزلي والذي خط الله ماهيته منذ بداية الخلق فلا تغيير يطرأ عليه ولا تطور خارجي يعتريه.

وبمعية العناية الإلهية وبصرامة القانون الأزلي الذي يمثل إرادة الله، كان أن خلق الله الموجودات وجعل لكل مخلوق منها قانون يحكمه، فالطبيعه بما رحبت جعل الله لكل جزء منها قانونا يحيط بها ويحميها ويضمن سيرورتها، سواء كانت الموجودات غير عاقلة كمجتمع الحيوانات والذي يسير القانون فيه وفق غريزتهم، فلكل حيوان وظيفته التي تلقنها له غريزته، أو كانت مخلوقات عاقلة كالبشر فيصلون للقانون من خلال العقل، وهو ما أسماه أوغسطينوس بالقانون الطبيعي، والقانون الطبيعي ليس هو القانون الأزلي بل هو جزء منه كالقوانين البيولوجية التي تحكم جسم الإنسان، قانون الأفلاك والمواسم والفصول وغيرها.

والقانون الطبيعي أيضا هو تلك القيم التي تحكم الإنسانية وسلوكاتها: من عدل ومحبه وسلام وتسامح ومختلف المفاهيم الكلية التي يتفق على خيريتها كل البشر، والتي تعتبر محاكاة للصفات الإلهية ومحاولة للتماهي معها، كما يتفق على أن الخيانة والحقد والكذب والفجور هي آثام يجب إجتنابها، ، وفيها هي الأخرى -أي القوانين الطبيعية- من التناغم والنسقية والصرامة ما في القانون الأبدي، مع فرق جوهري وهو أنه قانون تجزيء وليس كلي مثل الأبدي، بمعنى أن لكل موجود من الموجودات قانونه الخاص به، والذي يميزه عن باقي الموجودات يقول أوغسطينوس:"إن الله خلق مع القانون الطبيعي وجميع الاشياء التي وهبها الله الوجود، أعني أنه خلق قانونها الطبيعي معها في وقت واحد. وكما أنها من حيث وجودها تشارك في الوجود الاهي، فكذلك بسبب أن قانون نشاطها مسجل في ماهيتها، أو في بنيه وجوده نفسه، فإنها تشارك كذلك في القانون الأبدي لله، (...)إن القانون الطبيعي هو

---

[1] اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، تر، حسن حنفي، مر:فؤاد زكريا، المطبعة الثقافية، مصر، دط، 1971، ص195.

[2] ليوشتراوس جوزيف كروبسكي، تاريخ الفلسفة السياسية من ثيوكيديديس حتى سبينوزا، تر، محمود سيد أحمد، مر وتق، إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، دط، 2005، ص 273.

بالنسبة للقانون الأبدي مثل الوجود بالنسبة للوجود الإلهي"[1]، بمعنى أن القانون الطبيعي مخلوق والقانون الأبدي هو فكرة الله وعقله، هو الله عينه. بعبارة أخرى إذا كان القانون الأزلي هو حكمه الله فإن القانون الطبيعي هو تجسيده وتجليه في الكون ومخلوقاته.

قد يكون القانون الأزلي أيضا محددا ومذكورا في شكل أوامر إلهية مذكورة في كتابه المقدس تهذب الأفراد وتخط لهم طريق الفضيلة وهي موجودة في كل الإنجيل من تصرفات كان يقوم بها السيد المسيح أو وصايا كان يلقنها لتلاميذه ومثاله "مَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ فَاعْرِضْ لَهُ الآخر أَيْضًا، وَمَنْ أَخَذَ رِدَاءَكَ فَلاَ تَمْنَعْهُ ثَوْبَكَ أَيْضًا"[2].

القانون الأزلي والقانون الطبيعي هي تلك القوانين الثابتة التي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يغيّرها البشر أو يطوعوها، لكن الله يستطيع، إذ فعل ذلك أكثر من مرة في التاريخ، ويظهر ذلك في المعجزات التي منحها لأنبيائه والتي تعتبر خرق للقوانين الطبيعية لا القوانين الأزلية، ومثاله "25وَفِي الْهَزِيعِ الرَّابعِ مِنَ اللَّيْلِ مَضَى إِلَيْهِمْ يَسُوعُ مَاشِيًا عَلَى الْبَحْرِ. 26فَلَمَّا أَبْصَرَهُ التَّلاَمِيذُ مَاشِيًا عَلَى الْبَحْرِ اضْطَرَبُوا قَائِلِينَ: «إِنَّهُ خَيَالٌ». وَمِنَ الْخَوْفِ صَرَخُوا! 27فَلِلْوَقْتِ كَلَّمَهُمْ يَسُوعُ قِائِلاً: «تَشَجَّعُوا! أَنَا هُوَ. لاَ تَخَافُوا.« 28فَأَجَابَهُ بُطْرُسُ وَقَالَ: «يَا سَيِّدُ، إِنْ كُنْتَ أَنْتَ هُوَ، فَمُرْنِي أَنْ آتِيَ إِلَيْكَ عَلَى الْمَاءِ.« 29فَقَالَ: «تَعَالَ». فَنَزَلَ بُطْرُسُ مِنَ السَّفِينَةِ وَمَشَى عَلَى الْمَاءِ لِيَأْتِيَ إِلَى يَسُوعَ. 30وَلكِنْ لَمَّا رَأَى الرِّيحَ شَدِيدَةً خَافَ. وَإِذِ ابْتَدَأَ يَغْرَقُ، صَرَخَ قِائِلاً: «يَا رَبُّ، نَجِّنِي 31.«!فَفِي الْحَالِ مَدَّ يَسُوعُ يَدَهُ وَأَمْسَكَ بِهِ وَقَالَ لَهُ: «يَا قَلِيلَ الإِيمَانِ، لِمَاذَا شَكَكْتَ؟« 32وَلَمَّا دَخَلاَ السَّفِينَةَ سَكَنَتِ الرِّيحُ. 33وَالَّذِينَ فِي السَّفِينَةِ جَاءُوا وَسَجَدُوا لَهُ قَائِلِينَ: بِالْحَقِيقَةِ أَنْتَ ابْنُ اللهِ"[3]، القانون الطبيعي ثابت صارم في الكون، فوقوف الإنسان على الماء يؤدي إلى الغرق وهو أمر حتمي مقضي، لكن أن يقف إنسان على الماء ولا يغرق هو أمر خارق للطبيعة، وضعها الله في التاريخ أمام الشهود حتى يزدادوا إيمانا وحسب وهي من الطرق التبشيرية في الأديان الثلاثة، وعليه فالمعجزات هي خرق للنظام الطبيعي بإرادة إليهة وليس خرقا للقانون الأزلي.

2.2.2. القانون الوضعي:

يحدث العكس عندما نبتعد عن القانون الأزلي وبالتالي نبتعد عن حالتنا الأولى السويّة، ونتوغل أكثر في شهوات العالم الحسي فنغترب عن ذواتنا وعن الله ونعيش مع الألم. وما الألم هنا سوى الشر الذي ينتج عن غياب التناغم وخيريته. عندها يتمرد الكل على الكل، ويختل سلم الرتب، فتسيطر المادة على الروح، ويخضع ما هو أعلى لما هو أدنى، جراء الخطيئة التي كانت السبب الأول للتمرد ولا تزال. حدثت الخطيئة بفعل الأكل؛ فعل التحدي، فاختُرق التناغم والتناسق الكوني، اخترق القانون الأبدي، وانحرفت الفطرة السوية، هو اتباع مسار جديد بشري، هو انقلاب على سنن الله الكونية، الانقلاب عليها هنا لا يعني تغييرها أو تطويعها أو خرقها، بل هو سير عكس مقولاتها الثابتة، أي عكس النواميس الإلهية.

[1] إيتين جلسون، مرجع سابق، ص388.
[2] إنجيل لوقا، الاصحاح (6:29).
[3] إنجيل متى، الاصحاح(14، 24-33).

الابتعاد عن الكلية والثبات هو اقتراب من النسبية والتغير، وهو حال القانون الجديد الذي حل محل القانون الأزلي والمتمثل في القانون الوضعي، وهو قانون وضعي لأنه من وضع الانسان، ولأن الإنسان ليس واحدا فإن القانون يتغير بتغيره من مكان لآخر ومن زمن لآخر ومن مجتمع لآخر ومن ظروف لأخرى، والتي يتقبلها مجتمع هنا يرفضها مجتمع هناك بل حتى أن القانون الذي يتقبله مجتمع الآن هو عينه القانون الذي كان محرما في ما مضى، لهذا يمكن أن نطلق عليه أيضا القانون المؤقت. وعلى الرغم من ذلك فمهما حاول الإنسان أن يتوهم أن القانون الوضعي بشري خالص فهو مخطيء، لأن القانون الطبيعي موجود داخل كل فرد منا لكنه مدفون في باطنه يتخارج من حين لآخر على حسب مد الشهوات وجزرها، فهي كالأفكار القبلية الكامنة في عقل الإنسان؛ مقولاته، فالقاضي العادل والأستاذ العادل والمواطن العادل هو محاكاه للعدل الالهي وهكذا، بمعنى أن القانون الوضعي هو قانون طبيعي محرّف والذي يكون سوّيا عند أشخاص بعينهم.

يعرفه القديس أوغسطين بقوله: "الأحكام التي يصدرها بشر ضد بشر، إنها أحكام تبقى ضرورية على مستوى المدن أيا كان السلام الذي به يتمتعون"[1]، وهي أحكام تخضع لعقلانية الأفراد كما يمكن أن تخضع لشهواتهم وحبهم للسلطة بمعنى أنها أحكام خاضعة لأهواء الأفراد التي يغفل دور العقل فيها، مما قد يسبب كوارث وحروب وانقلابات كثيرة تؤثر على الدول وعلى الأفراد، وهي حال كل القوانين الزمنية التي لا تُستمد من النص المقدس، ومع ذلك فوجود القانون أمر ضروري ضرورة وجود الدولة ذاتها "لردع(...) الطبيعة الإنسانية وإصلاحها وتوفير الطمأنينة للخيّرين، هذه المهمة هي التي كما يقول القديس أوغسطين تجعلنا نقر بالسلطة الدنيوية ونقبل تطبيق القوة حفاظا على الحق والنظام"[(2)] ما أمكن، لأن الحق والنظام الكامل من الاستحالة أن يتحقق بعيدا عن القانون الأزلي، وهو قانون يخضع له سكان مدينة الأرض وسكان مدينه الله سواء بسواء، مع فرق أن سكان مدينه السماء يعرفون تمام المعرفة القوانين الأخلاقية الإلهية ويطبقونها فيما بينهم، أما قانون الدولة فليس لهم أي دخل فيه. إلى حين.

والقانون الروماني وحدة البحث الأوغسطينية هو "رباط دائم ومباشر بعد المعاهدة، في القانون العام كما في القانون الخاص، القانون إذن هو شيء يوحد البشر ويطبق ليس بفعل عنيف أو ديكتاتوري، وإنما بفضل الاتفاق والتوافق (...)ليست عمل إنسان واحد وإنما عقد بين فصيلين إثنين من الأعداء، النبلاء والعوام، الذي يدعى اتفاق الشعب كله، هذا هو الاتفاق الكلي الذي دائما ما نسب إليه التأريخ الروماني دورا خارقا للعادة في صياغة القوانين"[3]، بمعنى أن القانون الروماني صادر نتيجة للوضع الذي يفرضه الواقع، بمعية جميع الأطراف حتى تتوحد المصالح، بعبارة أخرى "القانون (...)شيء يخلق علاقات جديدة بين البشر والذي يربطهم، ليس بمعنى الحق الطبيعي حيث كل البشر يتعرفون طبيعيا إلى الخير والشر بواسطة صوت وعي الطبيعة، ولا بمعنى الأوامر المفروضة من الخارج على كل الناس بطريقه عادلة، ولكن بمعنى الاتفاق بين المتعاقدين. بما أن اتفاقا ما لا يمكن أن يحصل إلا إذا كانت

---

[1] القديس أوغسطين، مدينه الله، مج3، مصدر سابق، ص 122.

[2] إسماعيل زروخي، دراسات في الفلسفة السياسية، دار الفجر، القاهرة، ط1، 2001، ص 171.

[3] حنه أرندت، مرجع سابق، ص 106.

مصالح الطرفين مضمونه"[1]، فالقانون ليس نتاج إبداع فردي بل هو نتاج جماعي متفق عليه، يطبق بعدها بين الناس الذين حدث بينهم الاتفاق.

لا يخفى تأثر أوغسطينوس بالسياسة اليونانية والسياسة الأفلاطونية خاصة، وبالأخص كتاب القوانين الذي يعتبر دراسة سياسية معمقة ورصينة والتي أخذ عنها أوغسطين الكثير من المفاهيم والاشكالات[*]، والذي أثر على الفكر الروماني بأكمله ليس على أوغسطين فقط، نظرا للباع الذي أحرزته سياسة البوليس اليونانية، مع مراعاة أن التأصيل الفلسفي للقانون الأوغسطيني هو تأصيل مفارق، وهو القانون الذي ظهر بعد أن تناول آدم من ثمر الشجرة، هناك كانت البوادر الأولى لهذا الوضع الجديد المتغير بتغير إرادة الإنسان الجديد.

يخضع هذا القانون الوضعي لنفس قوانين المدينة الأرضية الأزلية الصارمة من تغير ونقص ونسبية وحدود ونهاية وسقوط وقيام، فالقوانين تسقط هي الأخرى لتقوم مقامها قوانين أخرى وهكذا، لأنه قانون عاجز وفاشل في مرات كثيرة بنفس عجز وفشل العقل البشري على استيعاب ذاته، إنه قانون المدينة الأرضية التي أبدعت منظومة قيمية جديدة تحاول محاكاة المنظومة القيمية الأصل، تقترب أحيانا وتتسع الهوة بينها أحيانا أخرى، وفي هذه المنظومة الجديدة ظهرت الكثير من القيم في التاريخ لم تكن موجودة قبل، بل إن لهذه القيم الجديدة ما يشرّع لها في الدين المسيحي، فانعكاسات الخطيئه لم تنتهي بعد وهي مستمرة في التاريخ بكل جوانبه والسياسة واحدة منها، ومن بين هذه القيم نجد قيمة الرق، قيمة الحرب، قيمة الملكية، والتي كانت بمثابة مخلفات القانون الأرضي

3. الدولة الدينية

مرت المسيحية منذ نشأتها بتجاذبات عديدة ومنعطفات حرجة، كحال باقي الديانات السماوية التي تحاول أن تفرض نفسها وتنشر دينها ذو الحقيقة الكاملة، نشر دين جديد هو بالضرورة انقلاب على الدين الذي كان سائدا وبالتالي هو صراع مع معتنقيه، المسيحية كذلك كانت بداياتها صعبه جدا وقاسية انتهت بصلب الرب ومعلمهم يسوع المسيح.

2.3. الأقلية المسيحية

كانت المسيحية في بداياتها أقلية مستضعفة خاصة بعد صلب معلمهم السيد المسيح من قبل الجماعات اليهودية بدعم من الدولة الرومانية الوثنية، ولم يبق لهم من حليف غير اجتهادات الرسل والحواريين في التبشير بتعاليم الرب يسوع، تجنبوا حياة العزلة

---

[1] حنة أرنت، مرجع سابق، ص 108.

[*] يشبه المنهج الأوغسطيني في دراسته للسياسة منهج أفلاطون في ذات الدراسة من كتابه القوانين، حيث لاحظ المتخصصون أن المنهجيه ذاتها يقول: "وندخل إلى المناقشه المباشرة للمسألة الرئيسية الخاصة بالسياسي وما هي المدينه وكيف تقوم، وما يعمله أفلاطون في هذا الكتاب هو تطبيق المنهج التقليدي في شرح التاريخ اليوناني من أول نشأته الخرافية إلى عصر أفلاطون نفسه، ونستطيع بدراسته لكيفية قيام القانون والنظام الدستوري في المجتمع أن تكتشف ما لهما من وظائف والشروط اللازمة لتصريف شؤونهما تصريفا دائما وناجحا وهذه هي فلسفه التاريخ في فجر ظهورها، ونحن لا نستطيع أن نلتقي في الأدب الموجود للعالم القديم بمثال آخر من نفس النوع والكيف حتى يجيء سانت أوجستين بكتابه Dai Civitare" أفلاطون، القوانين، تر، تيلور، نقله إلى العربيه، محمد حسن ظاظا، من مقدمه الاستاذ تيلور، الهيئة المصريه العامه للكتاب، مصر، دط، 1986، مقدمة.

والعبادة لأنهم لو فعلوها لقتلوا دينهم بأيديهم واندمجوا في الجماعات والأمم، كل همهم إيصال ما أراد الرب يسوع إيصاله بتبليغ الدين الحق للناس كافه من خلال رسائلهم التي نشروها بعد أن امتلأوا بروح القدس ومحاولتهم جمع أكبر عدد من الأتباع، وهو ما حققه فعلا الرسل بعد أن انتشروا في بقاع الأرض بدءا من كنائسهم التي بدأت في استقطاب الكثير من المريدين انطلاقا من أورشليم، وانتشار تلاميذهم من بعدهم، وبرغم العذابات التي لاقوها تمكنوا من نشر الدين المسيحي في كل أنحاء العالم وعرفوا العالم بالمسيحية وأتموا الدور الذي أسنده السيد المسيح لهم، ثلة من الرجال المخلصين نشروا المسيحية وهي ليومنا هذا موجودة بفضلهم، برغم المصير المأساوي الذي لاقاه الرب يسوع وحوارييه*.

لم يختلف وضع المسيحيين عن اليسوع ورسله إذ شهدوا أشد أنواع العذاب الذي عرفته البشرية، وذلك بسبب أن الامبراطورية الرومانية المعتنقة للديانة الوثنية كدين رسمي للدولة، كانت تنص في قوانينها على حرية المعتقد وضرورة الانفتاح على كل الديانات لكن بشرط أن تحترم الدين الوثني وتشارك في قرابينه التي تحتفل بها الدولة سنويا وأحيانا شهريا، ورفض القيام بهذه الشعائر تعتبر خيانة عظمى؛ يقول ترتليان :"نتهم بأننا كفار وبما هو أكثر وهذه نظرة الأباطرة لنا إن رفضنا الخضوع لأسرارهم الموقرة(...) كما نتهم بجريمة الخيانة العظمى التي هي مناهضة للدين الروماني، إنها جريمة الكفر لأنه ينظر إليها من منطلق أنها تسبب الأذية والألم للإله، واعتبر المسيحيون أعداء الدولة. وضد سعادة وخير ورفاهية الشعب وبما يختص بالاحترام الديني فنحن كمسيحيين متهمون بتدنيس المقدسات لأننا لا نقيم احتفالات الكرنفال التي يقررها القياصرة. وندخل في المعركة عندما نتحدى لنواجه المحاكم القضائية. وهناك نخاطر بالحياة بينما نشهد بالحق ويستجلب علينا المخبرون والحراس اتهامات مسيحيتنا بأننا جانحون جنسيا أو قتلة أو مجدفون أو خونة أو أعداء الحياة والمجتمع، أو مندسون للهياكل أو مناهضون للديانة الرومانية"[1]، منطلق إتهام المسيحين مسألتين مركزيتين أولاهما عدم الايمان بالآلهة الرسمية الرومانية، أما الثانية والأهم هي عدم احترام تلك الآلهة وتقديم قرابين لها بل ونشر دين مغاير مهاجم لها.

أدى ذلك الاضطهاد إلى نشأت جماعات مسيحيه كأقليات في الدولة، منغلقة على ذاتها تشبه في انغلاقها الجماعات الفيثاغورية قديما، كما كانوا يرفضون المشاركة في الحروب الرومانية أو حتى الانخراط في صفوف جيشهم، لاحظ الشعب الروماني انعزال المسيحيين وانسحابهم من الحياة الاجتماعية للدولة التي توفر لهم الأكل والشرب والحياة الكريمة، والأكثر من هذا توفر لهم الأمان، فرفضوا هذا التواجد السلبي في الدولة هذا من جهة الشعب، أما من جهة الدولة فكانت لها زاوية نظر مختلفة إذ ترى أنهم جماعة منغلقة على ذاتها ترفض احترام دين الدولة الرسمي، وتجمع حولها أناس يرفضون ذات الدين، ترفض المشاركة في الدولة بكل كياناتها فهي إذن جماعة متمردة تسعى للانقلاب على الدولة في أي لحظة.

---

* لم تكن نهاية الرسل الحوارين أكثر رحمة من نهاية رسولهم، إذ نالوا من العذاب الكثير وانتهت حياة أغلبهم بالاستشهاد في سبيل الحق والكلمة، وهناك نماذج كثيرة كالقديس بطرس الذي استشهد مصلوبا ورأسه إلى الأسفل، القديس بولس الذي استشهد بقطع رأسه، -وكان هذا في عهد الامبراطور نيرون الذي أحرق إمبراطوريته لينشئ على أنقاضها النيروبوليس-، وهي نفس طريقة استشهاد القديس توما، وصلب فيلبس الرسول كما صلب القديس أندروس، وهو حال كل رسل السيد المسيح، ولم يمت ميتة طبيعية غير القديس يوحنا الانجيلي.

[1] نقلا عن إبرهارد أرنولد، المسيحيون الوائل، تر: هناء عزيز حبيب، مر: عزيز حبيب، مكتبة المنار، القاهرة، دط، 2000، ص ص 75-76.

جماعة يجب قمعها بطرق مختلفة وحدث القمع بالفعل، مثاله "الاضطهاد الكبير الذي افتتح به دقلديانوس عهده سنه 303م فالمصادر المتعلقة بالشرق كثيرة عنه، فأول منشور صدر قضى بهدم الكنائس وإتلاف الكتب المقدسة وتجريد المسيحيين من ذوي الطبقات الرفيعة من كل منصب شرفي"[1]، أو بصلبهم وسلخ جلودهم أحياء أو سحلهم، كما تم وضعهم قبالة أسود جائعة، وتم تقطيع أجسادهم وفرقوها بين الأقاليم كما حدث مع القديس مرقس، قاموا بإلصاق أجساد المسيحيين النحيلة بإطارات مسننة ورميها من جبال عالية، كما ألصقوا ذات الأجساد بغصنين لشجرتين ربطوهما ببعض بحبل ثم قاموا بقطع الحبل لينشطر جسم الشهيد إلى قسمين، فيرمى ذلك الجسد الطاهر في العراء تأكله الوحوش والطيور ولا يتاح لها حتى فرصة تكريمه بالدفن، وغيرها من الأساليب التي تعكس بشاعة الجنس البشري.

جمع المؤرخون أقسى الاضطهادات التي تعرضت لها الأقليات المسيحية في وأطلقوا عليها الاضطهادات العشر وهي على التوالي: "1نيرون، 2دومتيان، 3تراجان، 4مرقس أوريليوس، 5سبتميوس ساويرس، 6 مكسيمينيوس، 7ديسيوس، 8 فاليريان، 9 أوريليان، 10دقلديانوس، لكن هذا التقسيم عرفي اصطلح عليه، وليس معناها الاضطهادات حدثت عشر مرات فقط (... بل) لم تتوقف أبدا. ما تكاد تتوقف من جهة، حتى تندلع من جديد في جهة أخرى. وحتى أكثر الفترات هدوءا كان لها شهداؤها"[2]. فهذه الاضطهادات هي أقسى ما مر على المسيحيين، بلغ فيها التعذيب أشده حتى تضاءل عددهم بشكل كبير، لكن في المقابل لم تزدهم سوى تشبثا بالحقيقة ورغبة في الارتقاء واللحاق بالرب يسوع.

في هذه المرحلة المسيحية الأولى وإلى غاية النصف الأول من القرن الثالث كانت الجماعات المسيحية تمثل أقليات مضطهدة بشتى أنواع الاضطهاد لكن بشكل متقطع؛ بمعنى أنها تمر بفترات تعذيب تتخللها مراحل هدنة وسلام مؤقت من بعض الأباطرة كالإمبراطور غاليريوس والإمبراطور جالينوس، أما غالب الوقت فكان العذاب هو ما ينتظرهم، إذ متى ما شك أحد الرومان في مسيحية أي فرد قاموا بتبليغ القضاة خوفا من غضب الآلهة، إذ ربطوا كل الكوارث الطبيعية التي حلت بالإمبراطورية بهم، ولأن الآلهة غاضبة منهم فالتبليغ عنهم هو وسيلتهم لإرضائها، يستجوبهم القضاة للتحقق من الأمر ثم تهديدهم بالموت إذا ما تأكدوا ثم إعدامهم فعلا إذا ما أصروا على التمسح.

كان الرومان شديدو التطلع لهذا الحكم العادل إذ كانوا يحسون بالأمان لأن الآلهة الوثنية راضية عنهم، فكان إعدام هذه الفئة الضالة وسيلة للتقرب من الآلهة واستعطافها، وهو ما تثبته رسالة جالينوس إلى الإمبراطور تراجان والتي جاء فيها التالي: "سيدي إنه من عادتي أن أخبرك بكل شيء بخصوص ما أنا في شك منه، ومن يستطيع أن يرشدني ويمحو جهلي سواك؟ أنا لم أحضر أبدا عذابات المسيحيين، ومن ثم لا أعرف إلى أي حد يكون عقابهم وكيفيه التحري عنهم، أيضا غير متيقن إن كان الزمن قد صنع فيهم اختلافا أو عوملوا بالشدة واللّين أو هددوا بأكثر قوة أو الذين تابوا وتأسفوا أو تجاه من كان مرة مسيحيا وارتد عن مسيحيته، أو من لم يعرف كمسيحي وهو منهم لذا فأنني اعتقد أنه يجدر أن نعاقب كل من سمي مسيحيا حتى وإن لم يرتكب أي

[1] حبيب بدر، المسيحيه عبر تاريخها في المشرق، مجلس كنائس الشرق الأوسط، لبنان، ط1، 2001، ص76.
[2] يؤانس، الاستشهاد في المسيحية، مطبعة الأنبا رويس العباسية، الإسكندرية، ط4، 1969، ص76.

جريمة، ويجب أن نعاقب كل الجرائم المرتبطة بهذا الاسم. وبينما اتبعت هذا الاجراء مع هؤلاء الذين بدوا لي كمسيحيين كنت أسألهم إن كانوا مسيحيين أم لا. وإن كنت أكرر عليهم السؤال ثانيه وثالثه وأحيانا كان ذلك يحدث تحت التهديد بعقوبه الموت. وإن قاموا بإصرار كنت أقودهم إلى الموت لأنه وقتئذ لن يكون لدي أي بادرة شك بعد أن يعترفوا على الأقل بعنادهم وتشبثهم الجامد الذي يستحق العقاب.

وقد وجد آخرون كثيرون من مواطني روما جنحوا إلى نفس ذلك الجنون. وقد عملت على أن يرسلوا إلى المدينة وبينما يحدث التحري عن هذه الجريمة انتشر هذا الجنون بأكثر سرعة وظهرت حالات خاصة كثيرة وهنا ظهر شخص ما ليعلن عن عدد كبير من الأسماء الهامة، لذا فقد شعرت أنه يجب عليّ أن ألزم هؤلاء أن ينكروا مسيحيتهم وأن يتبنوا خطواتي ويعبدوا آلهتي وأن يقفوا أمام تماثلك بالبخور والخمر التي آمر أن يجلبوها من أجل هذا الغرض مع تماثيل الآلهة وأن يتركوا المسيح جانبا. لقد قيل أن هؤلاء المسيحيين لا يمكنهم أن يفعلوا أيا من هذه الأشياء تحت أي ظرف. وآخرون مما وصلتنا أسماؤهم أنكروا سريعا مسيحيتهم إنهم كانوا مسيحيين. وفي الحقيقة كانوا قد عاشوا في مسيحيتهم سرا لمدة ثلاثة أعوام أو أطول أو حتى عشرين عاما. هؤلاء سجدوا لتمثالك ولتماثيل الآلهة ولعنوا المسيح. أما من استمروا في تمسكهم بهذا الأمر ليزيدوا من جرمهم وخطأهم فقد كانت لهم عادة أن يتقابلوا في يوم محدد في اجتماع ليرتلوا للمسيح كإله. ولقد أقسموا أن لا يرتكبوا أي جريمة بل لكي يتعهدوا بعدم السرقة أو السطو أو الزنى أو الحنث بالوعد أو خيانة من يثق بهم. وبعد أن يفعلوا ذلك يسلم كل منهم على الآخر ثم يتقابلون من جديد لكي يتشاركوا معا في تناول وجبة ما. وحتى إن قالوا إنهم كفوا عن القيام بذلك فمنذ أن توليت منعت من باب الاحتياط أي تجمعات سريه منغلقة. وقد اعتقدت أن كل هذا ضروري لأكتشف في النهاية ما كان حقيقيا من خلال تعذيب جاريتين لكنني لم أجد إلا بعض الخرافات الكثيرة، لذا أرجأت التحري والآن اتجه إليك طالبا النصح. الأمر بالنسبة لي يستحق النظر فيه خاصة لأن عددا كبيرا من هؤلاء عرضة للخطر وكذلك كل العصور القادمة بما تحمل من طبقات بشرية، الأجناس برتبها في خطر، سوف يزداد عدد من هم في خطر. لقد انتشرت عدوى هذه الخرافة ليس فقط من المدن بل أيضا في القرى والأقاليم. لكنني لازلت أشعر أنه يمكن إيقاف ذلك وإرجاع كل شيء إلى سابق عهده. وسوف يعود الناس ثانيه إلى معابدهم الجميلة التي هجروها والطقوس التي أهملوها ويبدأون من جديد في علف الحيوانات ليقدموها كذبائح والتي صارت لا تباع ولا تشترى. وتعود نفس الجموع الغفيرة من الناس إلى الطرق الفضلى وذلك أن منحت لهم الفرصة أن يتوبوا"[1]

وجاء رد تراجان كالتالي:

" لقد اتبعت الإجراء الصحيح في اختبار هؤلاء المتهمين أمامك بأنهم مسيحيون. فانه لا يوجد حاكم يمكنه أن يلقي سلاحه ويستسلم. لذا لا يجب أن يغض الطرف عن هؤلاء الذين وجدوا أمامك مذنبين بالبرهان بل يعاقبون. إنه من الممكن أن يترك المجال لأي منهم أن ينكر أنه مسيحي. وهنا بالطبع سوف يبرهن على ذلك من خلال عبادته وسجوده للإلهة. آلهتنا التي سامحته وقبلت توبته ولن تكون هناك شبهة على ماضيه. أما بخصوص اتهام هؤلاء المجهولي الاسم فلا يجب التسليم به في أي آلة

[1] نقلا عن إبرهارد أرنولد، مرجع سابق، ص ص 79-81.

إجرامية لأن هذه قد تعطي سابقه سيئة وشكلا أقل من المستوى في عهدنا"[1]؛ كانت المسيحية في هذه المرحلة تعتبر تهمه حاول الكثير من المسيحيين التنصل منها ومن بقي مصرا عليها فقد تم إعدامه في الساحات العامة، فروما هنا لم تكن قابلة لهذا الدين الجديد الذي كان يشكل تحديا حقيقيا لدين روما وتهديدا لأمن الامبراطورية ولسلامها الداخلي.

2.2. دولة داخل دولة

عذابات المسيحية لم تزدهم إلا تشبثا بالدين وتمسكا بعهد السيد المسيح، ورغبة في نشر الحق للعالم أجمع، ما جعلهم يلتفون حول كنيستهم وحول رجال الدين، مكرسين حياتهم لخدمتها والتضحية من أجلها والإخلاص لها، وكلما كان تشبثهم بالمسيحية أكثر كلما زاد نفورهم من الوثنية ومن طقوسها، وبالتالي من التعامل معهم في كافة نواحي الحياة، ليس فقط الدينية بل الاقتصادية والسياسية وحتى الابداعية، الثقافية والأدبية، فاضطرت "إلى الإنزواء والمواربة خوفا من البطش؛ ولتجنب مصائب جديدة"[2]، وتجنبا لعبادة الإمبراطور ورفض حرق البخور أمام تمثاله*.

تخلل هذه العذابات مراحل ساند فيها الأباطرة الوجود المسيحي في الدولة ودعموا حرية اعتناق الدين المسيحي وغيره، أدى إلى انتعاش المسيحية نوعا ما وازداد عدد المسيحين بشكل ملحوظ، فاستغل الآباء التسامح الإمبراطوري لبناء أكبر عدد من الكنائس كرمزيه عميقة عن جسد المسيح وعن مصير الإنسان المأمول المتمثل في الفناء في جسد السيد المسيح، وانتظار عودته من جديد ليحكموا العالم.

التمركز حول جسد المسيح زاد من قوة المسيحيين ودعم وجوده معهم رمزيا، فبدأ المسيحيون في تشكيل جماعات متفرقة متكاتفة متكاثفة فيما بينها، لا يزيدهم الاضطهاد إلا تمسكا بالدين، فلم يكن أكل الأسد للأم المسيحية غير شحنة من الطاقة والشجاعة لبقية المسيحيين، ولم ينتج عن صلب العجوز القسيس غير عدد كبير من المتعاطفين المنخرطين لهذا الدين الذي انتشرت صدى معجزاته لجميع أنحاء العالم، فلن ينس الحضور ما قام به الرسول بطرس: "8وَكَانَ يَجْلِسُ فِي لِسْتْرَةَ رَجُلٌ عَاجِزُ الرِّجْلَيْنِ مُقْعَدٌ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ، وَلَمْ يَمْشِ قَطُّ، 9هذَا كَانَ يَسْمَعُ بُولُسَ يَتَكَلَّمُ، فَشَخَصَ إِلَيْهِ، وَإِذْ رَأَى أَنَّ لَهُ إِيمَانًا لِيُشْفَى،10 قَالَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: «قُمْ عَلَى رِجْلَيْكَ مُنْتَصِبًا!». فَوَثَبَ وَصَارَ يَمْشِي."[3] أو ما فعله القديس بطرس: "ورَآهُ جَمِيعُ السَّاكِنِينَ فِي لُدَّةَ وَسَارُونَ، الَّذِينَ رَجَعُوا إِلَى الرَّبِّ. 36وَكَانَ فِي يَافَا تِلْمِيذَةٌ اسْمُهَا طَابِيثَا، الَّذِي تَرْجَمَتُهُ غَزَالَةُ. هذِهِ كَانَتْ مُمْتَلِئَةً أَعْمَالاً صَالِحَةً وَإِحْسَانَاتٍ كَانَتْ تَعْمَلُهَا 37وَحَدَثَ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ أَنَّهَا مَرِضَتْ وَمَاتَتْ، فَغَسَّلُوهَا وَوَضَعُوهَا فِي عِلِّيَّةٍ 38.وَإِذْ كَانَتْ لُدَّةُ قَرِيبَةً مِنْ يَافَا، وَسَمِعَ التَّلاَمِيذُ أَنَّ بُطْرُسَ فِيهَا، أَرْسَلُوا رَجُلَيْنِ يَطْلُبَانِ إِلَيْهِ أَنْ لاَ يَتَوَانَى عَنْ أَنْ يَجْتَازَ إِلَيْهِمْ 39.فَقَامَ بُطْرُسُ وَجَاءَ مَعَهُمَا. فَلَمَّا وَصَلَ صَعِدُوا بِهِ إِلَى

---

[1] نقلا عن أبرهارد أرنولد، مرجع سابق، ص: 81.

[2] عزيز سوريال عطية، تاريخ المسيحية الشرقيه، تر: إسحاق عبيد، المجلس الأعلى للثقافه، مصر، ط1، 2005، ص 38.

* إحراق البخور أمام تمثال الإمبراطور هو رمز الولاء للامبراطورية وتأكيد لهذا الولاء، فهو من ناحية أشبه ما يكون بيمين الولاء التي تطلب إلى من ينالون حق المواطنية، لكن الكنيسة كانت ترى في عبادة الامبراطور نوعا من الشرك وعبادة الاصنام، ولذلك أمرت أتباعها أن يرفضوا هذه الشعائر مهما ينالهم من الأذى بسبب هذا الرفض، ننظر ويل ديورانت، مج 3، ج3، مرجع سابق، ص 370.

[3] سفر أعمال الرسل، (14: 8-10).

الْعِلِّيَّةِ، فَوَقَفَتْ لَدَيْهِ جَمِيعُ الأَرَامِلِ يَبْكِينَ وَيُرِينَ أَقْمِصَةً وَثِيَابًا مِمَّا كَانَتْ تَعْمَلُ غَزَالَةُ وَهِيَ مَعَهُنَّ40فَأَخْرَجَ بُطْرُسُ الْجَمِيعَ خَارِجًا، وَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَصَلَّى، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى الْجَسَدِ وَقَالَ: «يَا طَابِيثَا، قُومِي!» فَفَتَحَتْ عَيْنَيْهَا. وَلَمَّا أَبْصَرَتْ بُطْرُسَ جَلَسَتْ،41 فَنَاوَلَهَا يَدَهُ وَأَقَامَهَا. ثُمَّ نَادَى الْقِدِّيسِينَ وَالأَرَامِلَ وَأَحْضَرَهَا حَيَّةً 42.فَصَارَ ذلِكَ مَعْلُومًا فِي يَافَا كُلِّهَا، فَآمَنَ كَثِيرُونَ بِالرَّبِّ"[1]، وغيرها الكثير من المعجزات التي جمعت حول جسد المسيح العديد من الأتباع وتلاميذ التلاميذ، ولم تكن معجزات هؤلاء أكثر شأنا من معجزات السيد المسيح، كل تلك المعجزات والعذابات ساهمت في توسع دائرة الأسرة المسيحية عبر العالم.

ربى القساوسة مواطنيهم تربية صالحة قائمة على تعاليم السيد المسيح بما فيها من تسامح ومحبة وإخلاص وأخلاق فاضلة، جماعات فاضلة منظمة خاضعة لأوامر البابوات أيا كان الأمر وكأنهم جيش مدرب تدريبا جيدا، ومنظم أحسن تنظيم، جيش رفض الانضمام للخدمة العسكرية ومشاركة قتلة المسيح في حروبهم؛ أليس جنود الرومان هم من نفذوا حكم الصلب على يسوع المسيح؟، كما ربوا أتباعهم على أن الملك الحقيقي للرب يسوع المسيح وما الإمبراطور إلا ملك على المدينة الأرضية الزائفة.

هناك إذن ملكان متقابلان فكيف يتبعون الزيف ويتركون الحق؟ رغم معرفتهم بزيف الحق لدى الأباطرة؛ إلا أن الأمر لم يمنعهم من طاعتهم شرط ألا يكون هناك أي تعاون بينهم، تعاون يفقد أهلية رجال الدين ويبعدهم عن وظيفتهم التي وجدوا من أجلها: تطعيم الحياة الروحية لا الدنيوية.

في البداية تم الفصل بين سلطة الإمبراطور وبين سلطة رجل الدين المسيحي وهذا الفصل مردّه لمؤامرة دبروها للسيد المسيح أين "13 أَرْسَلُوا إِلَيْهِ قَوْمًا مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ وَالْهِيرُودُسِيِّينَ لِكَيْ يَصْطَادُوهُ بِكَلِمَةٍ 14.فَلَمَّا جَاءُوا قَالُوا لَهُ: «يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ وَلاَ تُبَالِي بِأَحَدٍ، لأَنَّكَ لاَ تَنْظُرُ إِلَى وُجُوهِ النَّاسِ، بَلْ بِالْحَقِّ تُعَلِّمُ طَرِيقَ اللهِ. أَيَجُوزُ أَنْ تُعْطَى جِزْيَةٌ لِقَيْصَرَ أَمْ لاَ؟ نُعْطِي أَمْ لاَ نُعْطِي؟ 15«فَعَلِمَ رِيَاءَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «لِمَاذَا تُجَرِّبُونَنِي؟ اِيتُونِي بِدِينَارٍ لأَنْظُرَهُ 16«.فَأَتَوْا بِهِ. فَقَالَ لَهُمْ: «لِمَنْ هذِهِ الصُّورَةُ وَالْكِتَابَةُ؟» فَقَالُوا لَهُ: «لِقَيْصَرَ 17.«فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «أَعْطُوا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا للهِ للهِ». فَتَعَجَّبُوا مِنْهُ."[2]، طائفتان مختلفتان بل وغير متفقتين كالفريسيين* والهيروديسيين**، أحدهما ضد ما تطلبه الدولة من ضرائب والأخرى تدفعها وهي راضية،

---

[1] أعمال الرسل، (9: 8-42).

[2]إنجيل مرقس، (12: 13-17). كما ذكرت في إنجيل متى:"15 حِينَئِذٍ ذَهَبَ الْفَرِّيسِيُّونَ وَتَشَاوَرُوا لِكَيْ يَصْطَادُوهُ بِكَلِمَةٍ16 فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ تَلاَمِيذَهُمْ مَعَ الْهِيرُودُسِيِّينَ قَائِلِينَ: «يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ وَتُعَلِّمُ طَرِيقَ اللهِ بِالْحَقِّ، وَلاَ تُبَالِي بِأَحَدٍ، لأَنَّكَ لاَ تَنْظُرُ إِلَى وُجُوهِ النَّاسِ 17.فَقُلْ لَنَا: مَاذَا تَظُنُّ؟ أَيَجُوزُ أَنْ تُعْطَى جِزْيَةٌ لِقَيْصَرَ أَمْ لاَ؟«18 فَعَلِمَ يَسُوعُ خُبْثَهُمْ وَقَالَ: «لِمَاذَا تُجَرِّبُونَنِي يَا مُرَاؤُونَ؟19 أَرُونِي مُعَامَلَةَ الْجِزْيَةِ». فَقَدَّمُوا لَهُ دِينَارًا 20.فَقَالَ لَهُمْ: «لِمَنْ هذِهِ الصُّورَةُ وَالْكِتَابَةُ؟ 21«قَالُوا لَهُ: «لِقَيْصَرَ». فَقَالَ لَهُمْ: «أَعْطُوا إِذًا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا للهِ للهِ 22.«فَلَمَّا سَمِعُوا تَعَجَّبُوا وَتَرَكُوهُ وَمَضَوْا." وذكر في إنجيل لوقا: " 20. فَرَاقَبُوهُ وَأَرْسَلُوا جَوَاسِيسَ يَتَرَاءَوْنَ أَنَّهُمْ أَبْرَارٌ لِكَيْ يُمْسِكُوهُ بِكَلِمَةٍ، حَتَّى يُسَلِّمُوهُ إِلَى حُكْمِ الْوَالِي وَسُلْطَانِهِ 21.فَسَأَلُوهُ قَائِلِينَ: «يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ بِالاسْتِقَامَةِ تَتَكَلَّمُ وَتُعَلِّمُ، وَلاَ تَقْبَلُ الْوُجُوهَ، بَلْ بِالْحَقِّ تُعَلِّمُ طَرِيقَ اللهِ 22.أَيَجُوزُ لَنَا أَنْ نُعْطِيَ جِزْيَةً لِقَيْصَرَ أَمْ لاَ؟ 23«فَشَعَرَ بِمَكْرِهِمْ وَقَالَ لَهُمْ: «لِمَاذَا تُجَرِّبُونَنِي؟24 أَرُونِي دِينَارًا. لِمَنِ الصُّورَةُ وَالْكِتَابَةُ؟» فَأَجَابُوا وَقَالُوا: «لِقَيْصَرَ 25.«فَقَالَ لَهُمْ: «أَعْطُوا إِذًا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا للهِ للهِ 26.«فَلَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يُمْسِكُوهُ بِكَلِمَةٍ قُدَّامَ الشَّعْبِ، وَتَعَجَّبُوا مِنْ جَوَابِهِ وَسَكَتُوا."

* الفريسيون: هي فرقة يهودية منشقة عن فرقة الحاسيديم كانوا على علاقة سيئة بالسيد المسيح وهو أيضا كان يصفهم في أكثر من موضع بالنفاق، لم تقتصر عداوتهم مع اليسوع بل مع باقي فرق اليهود، والأكثر من ذلك كانوا على خلاف دائم مع السلطة السياسية لأن الفريسيون يعتبرون أنفسهم أمناء تجاه الله وعلى

أرسلهم اليهود ليوقعوا يسوع في الفخ، فان هو اختار دفع الضريبة لروما سيثير غضب الفريسيين وكل الطبقة الفقيرة من روما والتي تمثل أكبر نسبة من المسيحيين وقتها، وسيعتبرونه محابيا للسلطة مداهنا لها، وإن هو اختار رفض دفع الجزية خسر الهروديسيين واتهم بالتحريض على الانقلاب وخلق الفوضى في المجتمع الذي يرفض الدفع وينتظر أي حركة ثورية تمردية تنقذه.

وقع يسوع بين اختيارين كلاهما يهدد مشروعه المسيحي فهو إما سيخسر الدولة أو يخسر الشعب، بل أقحموه لمناقشة مسألة في غاية الخطورة وهي علاقة رجل الدين بالسياسي أي العلاقة بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية خاصة وأن لروما طابع خاص في هذا الجانب، إذ لا يمكن للإمبراطور أن ينفصل عن إله الشمس الذي يضمن له الفوز في الحروب كما لا يمكن أن يتنازل الإمبراطور عن رتبة الألوهية التي حظي بها، فالعلاقة بين الدين والسلطة عند الرومان ،لزومية ولم يشهد عصر من عصورها أي انشقاق بينهما بل بالعكس كانت بداية إمبراطورية لاهوتية، ألم يكن رومولوس ابن اله.

وضع اليهود بدهائهم يسوع في ورطة حقيقية وترقبوا إجابته التي سيتورط بها لا محالة، إجابة قد تدلل على رغبة السيد المسيح في أخذ الملك لنفسه وتشييد المملكة المنشودة في روما، بدأ الفريسيون والهيروديسيون سؤالهم بمدح اليسوع وتذكيره بصدقه حتى يستدرجوه للفخ " يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ وَلاَ تُبَالِي بِأَحَدٍ، لأَنَّكَ لاَ تَنْظُرُ إِلى وُجُوهِ النَّاسِ، بَلْ بِالْحَقِّ تُعَلِّمُ طَرِيقَ اللهِ"[1] وهم لا يعلمون أنهم يتحدثون مع رب السموات والأرض رب العقول ورب الأنفس، علم بفخهم الخبيث "فَعَلِمَ رِيَاءَهُمْ"[2]، "فَعَلِمَ يَسُوعُ خُبْثَهُمْ وَقَالَ: لِمَاذَا تُجَرِّبُونَنِي يَا مُرَاؤُونَ"[3]، "فَشَعَرَ بِمَكْرِهِمْ"[4]، وجاء رد الرب مخيبا لظن المنافقين شاملا لفلسفة عميقة قائلا: أَعْطُوا إِذًا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا للهِ للهِ؛ إذ لم يستأثر الملك لنفسه بل بنص صريح يؤكد على وجود سلطتين وعالمين عالم زمني يحكمه القيصر وعالم مفارق روحاني يحكمه الله ويحكم العالم الزمني أيضا، ويجب على المواطنين أن يخضعوا للسلطان الزمني خضوعهم للسلطان الروحي.

يجب أن يؤدوا الواجبات التي تفرضها الدولة على كل الافراد ويحترموا القوانين، فيعطوا لقيصر ما يأمر به القيصر، حتى تسير الدولة نحو التقدم والتوسع، مادام الأفراد يشاركون الدولة جغرافيتها وأمنها واقتصادها فعليهم أن يخضعوا لقوانينها ولقيصرها، وهنا تكمن رمزية صورة القيصر على الدينار "ذلك أن ما لقيصر ليس بالبداهة الدينار وحده، بل إن الدينار ليس لقيصر إلا من حيث أن قيصر سكه على صورته، إنه ليس ملكه بالمعنى المألوف للكلمة، وإنما هو رمز سيادته. وعلى هذا فإن تصريح يسوع يدل بجلاء

هذا الأساس رفضوا أن يتلوا قسم الولاء لقيصر، ففرضت روما عليهم غرامة وهو ما أغضب هذه الجماعه وزاد من هوّة الخلاف بينهما. ننظر: راندال إيه. زكري: الطوائف اليهودية في زمن كتابة العهد الجديد، تر: عادل زكري، مدرسة الاسكندرية، الاسكندرية، ط1، 2016.

** الهيروديسيون: هم أتباع هيرودوس الحاكم الروماني بمعنى هم أتباع الدولة ومتملقوها، الراضين بكل أوامرها الدافعين لكل ضرائبها لكسب رضاها، ننظر المرجع نفسه.

[1] انجيل مرقس، (12: 13).
[2] انجيل مرقس: (12: 15).
[3] انجيل متى، (22: 18).
[4] انجيل لوقا، (20: 23).

على أن للحكام حقوق سيادة وأن من الواجب احترام هذه الحقوق.(...) هي سلطة قائمة، ولذا فان من الواجب إطاعة السلطة القائمة، أي سلطة، بل ليس بذي شأن أن يكون قيصر وثنيا"[1]، أما عن السلطة الثانية سلطة الله فله الحكم كله لأن الله لم يسبقه فعل العطاء، فالعطاء اقتصر على القيصر أما الله فهو ملك الجميع، ومع ذلك يبق الفصل الذي أحدثه الرب واضحا.

كما تجدر ملاحظة أن المتآمرين سألوه عن الجزية وهي أمر سياسي متعلق بالدولة، وكانت إجابة اليسوع متضمنة في شقها الثاني "الله" رغم أن الله غير مطروح في السؤال، يريد أن يقول أن العالم الأرضي لا ينفي العالم السماوي، ولا يعني الرغبة في الارتقاء إليه تجنب العالم الأرضي، كما لا يعني أن رجل الدين باعتباره المفوض باسم الرب ليخدم الكنيسة هو البديل الأرضي عن الله للتدخل في العالم السياسي، لأن رجل السياسة هو الآخر مفوض من الله ليخدم الدولة ولهذا الكلام الكثير من الأدلة في الإنجيل نجد منها :"1لِتَخْضَعْ كُلُّ نَفْسٍ لِلسَّلاَطِينِ الْفَائِقَةِ، لأَنَّهُ لَيْسَ سُلْطَانٌ إِلاَّ مِنَ اللهِ، وَالسَّلاَطِينُ الْكَائِنَةُ هِيَ مُرَتَّبَةٌ مِنَ اللهِ،2 حَتَّى إِنَّ مَنْ يُقَاوِمُ السُّلْطَانَ يُقَاوِمُ تَرْتِيبَ اللهِ، وَالْمُقَاوِمُونَ سَيَأْخُذُونَ لأَنْفُسِهِمْ دَيْنُونَةً 3.فَإِنَّ الْحُكَّامَ لَيْسُوا خَوْفًا لِلأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بَلْ لِلشِّرِّيرَةِ. أَفَتُرِيدُ أَنْ لاَ تَخَافَ السُّلْطَانَ؟ افْعَلِ الصَّلاَحَ فَيَكُونَ لَكَ مَدْحٌ مِنْهُ،4لأَنَّهُ خَادِمُ اللهِ لِلصَّلاَحِ! وَلكِنْ إِنْ فَعَلْتَ الشَّرَّ فَخَفْ، لأَنَّهُ لاَ يَحْمِلُ السَّيْفَ عَبَثًا، إِذْ هُوَ خَادِمُ اللهِ، مُنْتَقِمٌ لِلْغَضَبِ مِنَ الَّذِي يَفْعَلُ الشَّرَّ 5.لِذلِكَ يَلْزَمُ أَنْ يُخْضَعَ لَهُ، لَيْسَ بِسَبَبِ الْغَضَبِ فَقَطْ، بَلْ أَيْضًا بِسَبَبِ الضَّمِيرِ 6.فَإِنَّكُمْ لأَجْلِ هذَا تُوفُونَ الْجِزْيَةَ أَيْضًا، إِذْ هُمْ خُدَّامُ اللهِ مُوَاظِبُونَ عَلَى ذلِكَ بِعَيْنِهِ"[2]، نص صريح يقضي بالخضوع للسلطان ودفع الجزية أيضا، أيا كان نوع الحكم وثنيا أو سماويا وهذا ما يؤكده أوغسطينوس من جانب أن المدينه الارضية هي مدينه الفساد والحكم الوثني جزء منها، فهو في دراسته للحكم الوثني لا يركز على نوع الدين بقدر ما يركز على العدالة في الدولة بين المواطنين.

4. خاتمة

الكاهن أو رجل الدين فهو "رب أسرة جسدية أفرادها كلهم مواطنون للدولة يعولهم من عرق جبينه، لذلك فله لدى الدولة حقوق المواطن الكادح، وله أيضا أن يعلن عن رأيه كمواطن مسؤول ويعطي صوته في حينه. كما أن الكاهن أيضا راع للشعب، ولكن بسبب أن الكنيسة لا الدولة هي التي أقامته على الشعب، فانه يصبح مسؤولا عن رعيته أمام الكنيسة وليس أمام الدولة، كما يصبح عليه أن يعلّم رعيته بما تأمر به الكنيسة التي أقامته،(...) ولا يتسلط الكاهن على شعبه كحاكم ولكن كخادم وبخوف من الله"[3]، فرجل الدين في هذه المرحلة هو صاحب وعي روحي لا علاقة له بالقوانين ودساتير الدولة، بل يحذر رجال الدين من اعتلاء أبناء الكنيسة لمناصب عليا في الدولة لأن الدولة ومناصبها ستزيد من شهوات الجسد وحبه للدنيا وتفجر فيه حب السلطة التي أخرجت آدم من الجنة، فوظيفة رجل الدين التي وجد من أجلها هي انعاش الجانب الروحي للإنسان وفق تعاليم السيد المسيح لا غير، نشأت إذن داخل روما جماعه مواطنين ينتمون للكنيسة تحت السلطة الرومانية لكنهم في حقيقتهم تحت سلطة الكنيسة–

[1] ألبير باية، مرجع سابق، ص ص100-101.
[2] رومية، (13: 1-6).
[3] متى المسكين: الكنيسة والدولة، دير القديس أنبا مقار برية شيهيت، لبنان، ط7، 2009، ص ص41-42.

جسد المسيح-، عدد كبير من المسيحيين بأخلاق راقية غير طامحين في سلطة زمنية كل حلمهم هو الالتحاق بالسيد المسيح في ملكوته، مطيعين للكنيسة مستعدين لتلبية أوامرها لحد القتال من أجل إعلاء كلمة الرب.

5. قائمة المراجع:

- الكتاب المقدس، التوراة.
- الكتاب المقدس، الإنجيل.
- أوغسطينوس، من تأملات أوغسطينوس، تر،بانوب عوض، كنيسه الشهيد مارجرجس بيروت، دط ، دت.
- أوغسطينوس أوريليوس، مدينة الله، تر، يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، ط2، 2006.
- إبرهارد أرنولد، المسيحيون الوائل، تر: هناء عزيز حبيب، مر: عزيز حبيب، مكتبة المنار، القاهرة، دط، 2000.
- اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، تر، حسن حنفي، مر:فؤاد زكريا، المطبعة الثقافية، مصر، دط، 1971.
- إسماعيل زروخي، دراسات في الفلسفة السياسية، دار الفجر، القاهرة، ط1، 2001.
- أفلاطون، القوانين، تر، تيلور، نقله إلى العربيه، محمد حسن ظاظا، من مقدمه الاستاذ تيلور، الهيئة المصريه العامه للكتاب، مصر، دط، 1986.
- أفلاطون، الجمهورية، تر، حنا الخباز، دار القلم، لبنان، ط6، 2000.
- إيتين جلسون، روح الفلسفة المسيحيه في العصر الوسيط، تر: إمام عبد الفتاح إمام، مكتبه مدبولي، مصر، ط3، 1996.
- حبيب بدر، المسيحيه عبر تاريخها في المشرق، مجلس كنائس الشرق الأوسط، لبنان، ط1، 2001.
- حنه أرندت، ما السياسة، تر وتح: زهير الخويلدي، سلمى بالحاج مبروك، منشورات ضفاف-منشورات الاختلاف، الرياض-الجزائر، ط1، 2014.
- راندال إيه. زكري: الطوائف اليهودية في زمن كتابة العهد الجديد، تر: عادل زكري، مدرسة الاسكندرية، الاسكندرية، ط1، 2016.
- عزيز سوريال عطية، تاريخ المسيحية الشرقيه، تر: إسحاق عبيد، المجلس الأعلى للثقافه، مصر، ط1، 2005.
- علي زيعور، أوغسطينوس، دار إقرأ، بيروت، ط1، 1983.
- كيرلس سليم بسترس وآخرون، تاريخ الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة، المكتبه البوليسية، بيروت، ط1، 2001.
- مصطفى النشار، تطور الفلسفة السياسية من صولون حتى ابن خلدون، الدار المصرية السعودية، القاهرة، دط، 1982.
- ويل ديورانت: قصة الحضارة (قيصر والمسيح)، تر: زكي نجيب محمود، المنظمة العربية للتربية والثقافة، بيروت، دت، دط، مج 3، ج1
- يؤانس، الاستشهاد في المسيحية، مطبعة الأنبا رويس العباسية، الإسكندرية، ط4، 1969.